

أسلوب التفلسف في القرآن الكريم

Machfud Muhamad Sodiq

UIN Sunan Ampel Surabaya

gsseni@yahoo.com

ملخص: يعتبر كل من القرآن والفلسفة حركة فكرية تحاول كل على حدة وعلى طريقتها الخاصة، الوصول إلى الحقيقة. ويحاول القرآن مساعدة الإنسان على التمتع بالحياة والتعامل مع تعقيداته المختلفة من خلال دفعهم للهروب الواعي من الواقع، خاصة غير المريح منه، وقد دعا القرآن إلى اعتبار هذه الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به والنظر إلى الحياة على الأرض باعتبارها محطة على الطريق لما بعدها من حياة موعودة. أما الفلسفة فتحاول مساعدة الإنسان على التمتع بحياته من خلال حثه على مواجهة تعقيداته الكثيرة المتنامية، وتطوير قدراته العقلية على ممارسة التأمل الواعي والتفكير العلمي، ولا ترى سببا في تخلي الإنسان عن هذه الحياة من أجل ما يعد به القرآن من حياة مؤجلة أخرى. وموضوع هذا البحث هو الفلسفة في ضوء القرآن الكريم. لقد تناولت هذه المقالة أسلوب التفلسف في القرآن الكريم عن طريق المنهج الوصفي الكيفي المكتبي.

الكلمات المفتاحية: أسلوب التفلسف؛ الفلسفة؛ القرآن الكريم

مقدمة

لفظ الفلسفة من أصل اليوناني، وأصل الكلمة الإشتقائي هو Philein بمعنى محبة و Sophia بمعنى الحكمة. ويكون للمعنى اللفظي لكلمة (فيلوسوفيا) هو محبة الحكمة.^١ ويرى بعض مؤرخي الفلسفة اليونانية أن هذا المعنى يشير إلى تصور المعين لتاريخ الفلسفة أصبح واضحا منذ عهد أفلاطون (٤٢٨-٣٤٦ ق.م.) وهؤلاء الفلاسفة الطبيعيين الأقدمين، وهم في غمرة الثقة المطلقة بأنفسهم، سموا أنفسهم بالحكماء، فلما جاء فيثاغورس أدرك أن المعرفة الحقيقية لكل العالم إنما هي من نصيب الإله وحده، ولهذا فإن الإله وحده هو الحكيم، أما الإنسان فعليه أن يكتفى بمحبة الحكمة. أي أن الفيلسوف غايته محبة الحكمة، ثم تصرف فيه بعض الفلاسفة، وأصبح المقصود منه، الجدل لذات الجدل ولا سيما عند السوفسطائيين الذين خرجوا بالفلسفة إلى دائرة الجدل لذات

^١ أولف جيجن. المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية. ترجمة عزت قرني (القاهرة: دار النهضة، ١٩٧٦) ٢٣.

الجدل وليس لذات الحكمة أوحبا فيها فخرجت الفلسفة في بعض مراحلها عن غاية الحكمة على الجدل لذات الجدل.

يقول الفارابي: إن اسم (الفلسفة) يوناني وهودخيل في الغربية، وهو على مذهب لسانهم (فيلوسوفيا) ومعناه ايثار الحكمة وهو في لسانهم مركب من (فيلا) الايثار: و(سوفيا) الحكمة. والفيلسوف مشتق من الفلسفة وهو على مذهب لسانهم، فيلوسوفس، فإن هذا التغيير من الاشتقاقات عندهم، ومعناه المؤثر للحكمة هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره (الحكمة). يقول الفارابي إن الفلسفة ايثار الحكمة.^٢

الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين وهو الحكيم له الحكم ومن صفاته تعالى الحكيم والحكيم والحاكم ومعاني هذه الأشياء متقاربة، والله وحده الحاكم الحقيقي وهو أحكم الحاكمين وما لنا إلا لمجرد محبة الحكمة. وقال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب).^٣

ومن التعريفات الإصطلاحية لها: (البحث عن الحقيقة) وهو المعنى المشترك في جميع أدوارها وفي نظر الباحث أن البحث عن الحقيقة هو معنى من معاني محبة الحكمة، لأن الدافع عن الحقيقة -عادة- يدفع البحث إلى معرفة نفسه، ومعرفة ما حوله من الوجود، والتفاعل مع القضايا تبريرا أو تغييرا وذلك من غاية الحكمة، وكذلك البحث عن الحقيقة له آثار كثيرة تظهر على المستوى العقلي، والاجتماعي، والسكيولوجي.^٤

التفلسف من طبيعة الإنسان

إن المرء إذا تصور الإنسان فإنما تصور مفكرا، ولا يستطيع أن يتصور غير مفكر، وكيف لا يكون التفكير عنصرا أساسيا في حياته والعقل عنصر أساسي في تكوينه. إن الإنسان كان ينسق إلى الغذاء تلبية لحاجة جسمه، فإنه ينسق إلى التفكير تلبية لحاجة عقله. وإذا كانت الأحداث الكونية والأحداث الاجتماعية، تحد من نشاط تفكيره أو تعطله، إلى حين، فإنما شأن ذلك كشأن كشأن

^٢ عبد الحليم محمود. التفكير الفلسفي في الإسلام (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦) ٢٣.

^٣ سورة البقرة: ٢٦٩.

^٤ الميدان النفسى عند (لوين) هو المحيط كما يدركه الفرد أو المجال الحيوى للفرد في أية لحظة معينة

استيلاء رغبة التفكير عليه أحيانا حتى لتحذ من نشاط جسمه أو تعطل إلى حين كذاك. إن الكون مليئ بالعجائب والأسرار، وليس فيه ما لا يعد عجيبة أوسرا. والإنسان نفسه سر من أسرار الكون وعجيبة من عجابه وكل ألئك يتراءى لحسن الإنسان وعقله، فليس في وسعه أن يغفل عنها إلا إذا غفل عن حسه وعقله.^٥ وإن العقل عندما يدرس ما حوله من قضايا الوجود: يعلم – وهو على ثقة تامة – أنه يؤدي وظيفته، ويشعر بأن الفلسفة تمنحه حريته في مباشرة وظيفته الفكرية ن وكما أن المفكر يحس دائما أنه يتحمل مسئولية الفكر الإنساني فينبغي عليه أن ينهض لقيام بعبء مسئوليته لإيجاد الصيغة المناسبة للإستقرار الإنساني مع المشكلة الفلسفية.^٦

والذي يدفع إلى التفلسف – أيضا – هو القلق الذي ينتاب الإنسان من عدم فهمه للوجود، وتلك هي المشكلة الفلسفية الكبرى، فإذا ما استطاع الإنسان أن يعي من علامات الإستفهام التي حوله شيئا: سكنت لديه حدة القلق العقلي.

لا مفر من التفلسف

والتفلسف بالنسبة للإنسان هو أمر لا مفر منه (فالفلسفة ماثلة في مجتمع الناس) في الأمثال المأثورة. فالذين يحاربون الفلسفة ويحاولون هدمها والقضاء عليها يصنعون عبثا، ومحاولتهم مقتضى عليها بالفشل. ومن ناحية أخرى فإن محاولتهم هذه – بالرغم من أنها موجهة ضد الفلسفة – هي أيضا نوع من التفلسف تثبت الفلسفة بدلا من أن تقضي عليها.^٧ فالذي يرفض الفلسفة أو ينكرها هو في حقيقة الأمر متفلسف، لأنه لا ينطلق من فراغ، وإنما هو يحاول أن يجد أرضا صلبة يقف عليها ويطلق منعها سهامه إلى الفلسفة، أي أنه يحاول بناء وجهة النظر مضادة يجتهد في أن تكون منطقية ومتينة ومستندة إلى أسس قوية. وذا يعنى في النهاية أنه يتفلسف.

^٥ محمود حمدي زقزوق. تمهيد للفلسفة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢) ١٢.

^٦ محمد إبراهيم الفيومي. أبحاث الندوة نحو الفلسفة الإسلامية (المعهد العالم للفكر الإسلامي) ١٩٨١.

^٧ محمود حمدي زقزوق. تمهيد... ١٣.

الفلسفة تبدأ بالدهشة

إن الفلسفة تبدأ بالدهشة كما قال أفلاطون، وهي قادرة أن تجعلنا تتخيل كل شيء مختلفا عما هو عليه. فزى المؤلف كما لو كان غريبا والغريب كما لو كان مألوفاً.^٨ والدهشة هي نوع من اليقظة. واليقظة هي أهم ما يميز الإنسان المفكر أيا كان: سواء كان فيلسوفاً أو فناناً أو أديباً أو عالماً. إن الرسول ص.م يقول: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وهذا حق، لأن الإنسان في هذه الحياة الدنيا نيام أم مخمور، والموت وحده هو الذي يوقظهم من غفوتهم، ويؤدي إلى صحتهم في الحياة الآخرة، لكن الناس قبل الموت، في هذه الحياة الدنيا نفسها ينتبهون انتباهة أخرى أو انتباهات، ومصدر هذه الانتباهة أو الانتباهات هو الدهشة بحيث نستطيع أن نقول كذلك: "الناس نيام فإذا دهشوا انتبهوا". ملايين من الناس تمر بآلاف المناظر والأحداث والمواقف كل يوم، ولا يستوقفهم منها شيء، وكأنها لا تعنيهم. والفنان أو الأديب هو وحده الذي تستوقفه بعض هذه المواقف أو المناظر، أو أحدها فحسب، فتثير دهشته، وتوقظه وتهزه، ويجد فيها ما لا يجد غيره من الناس. وعلى هذا يقول تعالى في كتابه الكريم: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمل أبصار ولكن تعي قلب التي في الصدور".^٩ وفي قوله "أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون".^{١٠}

وإذا كانت الدهشة عماد العلم والفن فهي أيضاً من عماد التفلسف. إن الدهشة هي تساؤل دائم، فالإنسان يتسائل دائماً عن المبدأ الأول وعن المصير. من أين أتينا؟ ولماذا أتينا؟ وكيف ينتهي أجلنا... على آخر تلك التساؤلات العديدة.^{١١} وقد صاحب القرآن دهشة الإنسان وساعده على التفلسف والإجابة على هذه التساؤلات. وقال تعالى: "ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير".^{١٢} وفي قوله أيضاً: "غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير".^{١٣}

^٨ حسين على. ما هي الفلسفة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢) ١٨.

^٩ سورة الحج: ٤٦.

^{١٠} سورة يوسف: ٤٩.

^{١١} حسين على. ما هي... ٢٤.

^{١٢} سورة النور: ٤٢.

^{١٣} سورة الغافر: ٣.

القرآن يدعو إلى التفلسف

وليس من الشك في أن من يلقي نظرة فاحصة على القرآن الكريم، ويتأمل في آياته الدافعة إلى التدبر، المواجهة إلى التفكير.. ليس من الشك في أن من يلقي هذه النظرة، ويتأمل هذا التأمل، يتبين بوضوح وجلاء، أن هذا الكتاب الكريم كان أول أسباب تغلغل الفلسفة في البيئات العربية عامة، والإسلامية خاصة،^{١٤} بل هو أول كتاب سماوي فرض على اتباعه تعلم الفلسفة فرضاً، وأوجب عليهم التفكير في أسرار الكون وخفايا الوجود، ووصف المتأملين في هذا بأنهم وحدهم أول الألباب. وقال تعالى: "إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب"،^{١٥} "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها".^{١٦}

وقد أراد بهذا الحز الجازم أن يصل المؤمنون بهذا التفكير إلى معرفة المبدأ الأول، والإعتقاد بوحديته وكماله، وإلى الإيمان به عن طريق العقل لا عن طريق التقليد. السؤال الفلسفي إذن يتجه إلى الأشياء التي تقع أمام أعيننا كل يوم، ولكن هذه الأشياء تكشف أمام السائل، تفقد كشافتها تكشف عن وجهها العميق الذي لم تألفه من قبل. والواقع أن الدهشة هي مبدأ التفلسف وجوهه الثابت وقوته المحركة، ولو زالت عنه لتوقف التفلسف نفسه. والإنسان المندهش لا يعرف السبب الخفي وراء ما يدهشه، لأن الذي يعرف لا يندهش. وهو كذلك لا يفتقر إلى معرفة الأسباب.^{١٧}

الحكمة تتضمن النظر والعمل

إذا نظرنا إلى اللفظ العربي (حكمة) فهو مشتق من (أحكم – يحكم) أي (أتقن النظر والعمل) فالحكمة هي: اتقان النظر والعمل.

^{١٤} يرى ابن رشد في النظر العقلي الفاحص عن الموجودات مقصد الشريعة الأسى وجوهر العبادة الشريفة لله سبحانه وتعالى، فإن الشريعة الخاصة بالحكماء هي الفحص عن جميع الموجودات إذ كان الخالق لا يعبد بعبادة أشرف من معرفة مصنوعاته التي تؤدي إلى معرفة ذاته سبحانه على الحقيقة الذي هو أشرف الأعمال عنده وأحظاها لديه. جعلنا الله وإياكم ممن استعمله بهذه العبادة التي هي أشرف العبادات واستخدمه بهذه الطاعة التي هي أجل الطاعات. (انظر في مفهوم المعجزة بين الدين والفلسفة عند ابن رشد، مصطفى ليبب عبد الغنى) ٧.

^{١٥} سورة ال عمران: ١٩٠

^{١٦} سورة محمد: ٢٤.

^{١٧} حسين علي. ما هي... ١٤٠.

وفي لسان العرب الحكمة بمعنى: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها.^{١٨} وهي تطلق عند علماء الإسلام وفي اللغة العربية وفي الشعر وفي القرآن الكريم والأحاديث النبوية. يذكر صاحب البحر المحيط "الحكمة" بمعنى: الإصابة في القول والعمل، ومنها الفهم، ومنها: الكتابة، ومنها اصلاح الدين واصلاح الدنيا. وقا الإمام الشافعي: الحكمة بمعنى سنة النبي . وقيل أنها النبوة. فالشخص الملمم: مسدد الرأي، متزن التفكير، إنه (حكيم) باطنياً ظاهرياً. وقد فسر علماء الإسلام معنى كلمة: (حكمة) في عدة آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى فيما يتعلق بدادود عليه السلام: (وآتاه الله الملك والحكمة).^{١٩} وقوله تعالى (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أول الألباب).^{٢٠}

والمعنى الفلسفي لكلمة (حكمة): ومع كل ذلك فإن الرأي الذي يراه الباحث، من أن الحكمة هي: المعرفة بالله. والواقع (أن المعرفة بالله تعالى) لا تأتي ولا تتكامل إلا بالفضيلة، وعلى ذلك: فالحكمة ينتهي معناها، في رأي الباحث إلى كل ما تكون من جزأين: أحدهما المعرفة بالله، وثانيها المعرفة بالخير والعمل به. أو – بعبارة أدق – هي وحدة عبارة عن معرفة بالله، التي تتضمن المعرفة بالخير والعمل به.

أما ما يدعو الباحث إلى هذا الرأي: فهو أن جميع الفلاسفة على بكرة أبيهم، تشتمل مذاهبهم على البحث عن الألوهيات، والبحث عن الخير. أما ما عدا ذلك من أبحاث، فقد يكون وقد لا يكون. و(سقراط) – برغم توجيهه همه الأكبر، إلى البحث عن الفضيلة وعن الخير – فإنه بحث أيضاً: عن الألوهية واقتصر على ذلك. (أفلاطون): كان مركز الدائرة في أبحاثه (هو الخير)، سواء عبر به عن الله أو عبر به عن الفضيلة. أما الفلاسفة المحدثون: فتكاد أبحاثهم تقتصر على ما وراء الطبيعة، وعلى الأخلاق. وكلمة (الفلسفة الأولى) كانت تطلق عند اليونان وعند فلاسفة الإسلام على: (الإلهيات). ثم إن القدماء، والإسلاميين: كانوا يطلقون على كل فيلسوف عدة أوصاف. فيقولون عن (الكندي) مثلاً: كان طبيباً، ومهندساً، فلكياً، رياضياً وفيلسوفاً، ويعنون باستمرار بكلمة (فيلسوف) شيئاً آخر غير

^{١٨} ابن منظور. لسان العرب (بيروت: دار صادر، ١٩٩٠). ١٢، ١٤٠.

^{١٩} سورة البقرة: ٢٥١.

^{٢٠} سورة البقرة: ٢٦٩.

الباحث في الرياضة وفي الفلك وفي الهندسة. إنهم يعنون بكلمة (فيلسوف) الباحث في الأخلاق، وعلى الخصوص الباحث في الإلهيات. الحكمة إذن: المعرفة بالله، وطريقها الفلسفة.

فالفلسفة إذن: إثبات الحكمة، أوجب الحكمة، أي الجهد المتواصل للوصول إلى معرفة الله. والفيلسوف: (هو- على حد تعبير - الفارابي) الذي يجعل الوجد من حياته وغرضه من عمره: (الحكمة) أي المعرفة بالله التي تتضمن المعرفة بالخير.^{٢١}

يقول ابن سينا في رسالة (الطبيعات) الحكمة استكمال النفس الانسانية، بتصوير الأمور، والتصديق بالحقائق النظرية والعملية، على قدر طاقة الانسانية.

هناك حقيقة إيمانية أخرى وهي أن الإسلام يظل الحياة بشقيها، ويقول الله تعالى: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم). هذا القول الكريم يبين أن الوحي المنزل يزكي الناس في الدنيا ويعلمهم الحكمة، ويهديهم إلى سبل الفضيلة، اكتساباً لمرضاة الله، الأمر الذي يؤدي خلق جومن الطمأنينة في النفوس التي تود أن تكسب الحياتين: حياة الدنيا وحياة الآخرة. وهذا استقرار النفس له أثره في تهيئة الجو المناسب للتوجه على العلوم المختلفة التي تحقق الخير للإنسانية ثم هذه الطمأنينة تؤدي إلى تبين معنى من المعاني التي هي وراء أصول البحث وهو معنى "التكامل": فتبين الترابط بين الحياتين يؤدي إلى تبين الترابط الذي له سمة التكامل بين الحقائق في هذه الدنيا، مما يؤدي إلى مزيد من المكاسب في مجالات البحث. ثم هناك مبدأ من أهم المبادئ التي تتميز بها الشريعة الإسلامية وهو مبدأ (اقتران النظر بالعمل).

يقول الله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير)^{٢٢}. فالآية الكريمة تربط بين العلم والعمل من أجل توضيح قيمة التعامل إلى جانب قيمة الفكر، وهذا المبدأ يؤكد ليس فقد مفهوم التكامل العام بين الحياتين، ولكنه يؤكد أيضاً مفهوم التكامل الشخصية على المستوى الفردي يظهر هذا المبدأ بوضوح في أركان الإسلام الخمس التي تبدأ بالشهادة، ثم الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج وولهدا يتبين أن الموقف العبادي، قد أدى إلى تقدير

^{٢١} عبد الحليم محمود. التفكير الفلسفي... ١٦٨.

^{٢٢} سورة المجادلة: ١١

المبدأ من مبادئ العمل العلمي، حيث يجب تحقيق الترابط بين القول والفعل فيزداد تأكيد مفهوم التكامل، ويتسم التكوين الذهني للمسلم بالبعد عن البتر الذي يقلل من شأن الحقائق، فالنظرة للموجود لا بد وأن تكون رحبة لتشمل لمختلف أبعاده.^{٢٣}

الارتباط بين الدين والفلسفة

إن النظر في كتب القدماء واجب بالشرع، إذ كان مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثنا الشرع عليه.^{٢٤} فموضوع الدين هو بعينه موضوع الفلسفة كلاهما مطلبه كلي إذا كانت الفلسفة تهدف إلى (معرفة أصل الوجود وغايته ومعرفة سبيل السعادة الانسانية في العاجل والآجل فإن هذين المتطلبين الذين يشكلان موضوع الفلسفة بقسميها النظري والعملية هما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع.^{٢٥}

وإذا كانت الفلسفة هي الأم التي تفرعت عنها سائر العلوم الجزئية، فإنها من ناحية أخرى قد شبت وترعرعت في حضن الدين. فقد كان الارتباط بين كل من الفلسفة وثيقا منذ القدم، حيث كان التفكير الفلسفي ممزجا بالتفكير الديني. وقد لعبت الأساطير الدينية دورا هاما في التمهيد لنشأة التفكير الفلسفي.^{٢٦} وهذا يفسر لنا ما تعنيه تلك العبارة المشهورة القائلة (إن الفلسفة هي بنت الدين وأم العلم) من حيث أن الدين هو الذي مهد لها في حين أنها هي التي أنتجت العلم.

فلسفة التاريخ في القرآن

إن التاريخ باعتباره فلسفة،^{٢٧} وللتاريخ فلسفة قرآنية نابعة من ذات الفلسفة العامة، التي تشمل فيما تشمل تطورات حياة الإنسان، فما هي تلك الفلسفة؟ إن التاريخ شريط مجسد لسلسلة الأسباب والنتائج، والتي تعكس بوضوح سنن الحياة، وطبيعة أثرها في حياة البشر.

^{٢٣} نفس المرجع

^{٢٤} ابن رشد. كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (بيروت: دار المشرق، ١٩٦٨) ٣٣.

^{٢٥} محمود حمدي زقزوق. تمهيد... ٧٨.

^{٢٦} محمود حمدي زقزوق. تمهيد... ٧٦.

^{٢٧} أما ما يجعل التاريخ فلسفة حقيقة فهو أن الإنسان بمعرفته للتاريخ يتخطى تلك الدائرة الضيقة للمحددات الشخصية والزمانية والمكانية، وبذلك يصبح متحررا من الشروط الذاتية الكثيرة، ويقترب أكثر فأكثر من تأمل الحقيقة. ولهذا فالإنسان في حاجة إلى التاريخ لكي يفهم مفاهيمه من الأساس ويفهمها فهما تاما. ومن خلال هذا التاريخ يصبح التاريخ نقدا للعقل البشري على أساس تاريخي. فوسائل هذا العقل وصور معارفه ومفاهيمه واتجاهات الأفكار والمشكلات

يقول الله: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)^{٢٨} ، (فاقص القصص لعلمهم يتفكرون)^{٢٩} (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك).^{٣٠} إن فلسفة القرآن في التاريخ هي في حقيقتها بعض الدروس التي يجب أن تعلمها الإنسان من التاريخ ذاته، وهي تحدّد في الحقائق التالية:

- ١- البشر واحد، من واحد، وتجري عليه سنن مشتركة، يقول الله سبحانه: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها)^{٣١} وقال تعالى: (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع)^{٣٢} وقال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)^{٣٣} ومنذ آدم وابنائهم، وهم بداية سلسلة الإنسان، نجد الصفات مشتركة والأسباب والنتائج متشابهة إن لم تكن في مظهرها أيضاً فلا اقل في جوهرها الثابت لدينا.
- ٢- فآدم الذي ارتكب اول خطيئة بدافع الطمع والغرور.. وابنه الذي ارتكب اول اعتداء في تاريخ الإنسان وقتل اخاه بدافع الحسد والرئاسة، والندم الذي ساورهما، والعقوبة التي لحقت بهما في هذه الدنيا وفي الآخرة.. لكل ذلك اسباب ونتائج مشتركة بينه وبينه !! لذلك نستطيع قياس ذلك علينا تماماً.
- ٣- إن تطور الجنس البشري في تاريخه لم يكن بحيث يقطع علاقة القربى بينه وبين ماضيه. كما ان اختلافه مع بعضه ليس مما يؤثر في التفاعل مع بعضه، وتبادل التجارب والخبرات في اقل التقادير.

إن العنصرية تعتبر خرافة ساذجة في فلسفة القرآن التي تقول:

والدعاوى والافتراضات والنظريات تكشف عن ما هيتهما وقدرتها تدريجياً بمرور الزمان. وهذا يعني أن التاريخ يمثل الكشف الذاتي Selbstoffenbarung يتعاقب كل شيء تعاقباً منطقياً صارماً، ويمكن المرء أن يستنتج فيه المتأخر من المتقدم، وإذا كان الأمر كذلك فإن على المؤرخ أن يضع دائماً نصب عينيه أنه لا يدرس التاريخ من أجل التاريخ وإنما من أجل الفلسفة.

^{٢٨} سورة يوسف: ١١١

^{٢٩} سورة الأعراف: ١٧٦

^{٣٠} سورة هود: ١٢٠

^{٣١} سورة الأعراف: ١٨٩

^{٣٢} سورة الأنعام: ٩٨

^{٣٣} سورة النساء: ١

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^{٣٤} والخط العام الذي يعكس تطورات المجتمعات البشرية يبدأ من السعي الدائب للإنسان، باتجاه غاياته المادية والروحية، إلا أن التباس الحياة يغر الامم باختيار الطرق الميسورة، فينحرفون عن الصراط المستقيم كلما زعموا بأنه بعيد وشاق. وملخص نظرة القرآن الى التاريخ في أن الإنسان في التاريخ، فهولذلك عبرة ومدرسة. وبما ان للإنسان جانبي الايجاب والسلب، فان حركة التاريخ تدور في حلقتين، حلقة المصالح وحلقة الرسالة.^{٣٥}

أسلوب فلسفة المجتمع في القرآن

والجانب الفلسفي من نظرة الاسلام الى المجتمع نابع كذلك من الإيمان بان الانسان كائن محدود المعطيات وانه يملك خط السلبيات وخط الايجابيات، وعلينا حين نلاحظ المجتمع، التفتيش عن تفرعات حقائق الخطيئ. والقواعد الاساسية لفلسفة المجتمع في القرآن تتأطر ضمن نقاط التالية:

١- دراسة علم النفس اساسية في معرفة المجتمع، فكل شيء نجد مصغره في الفرد، نجده في المجتمع بصورة متجسدة؛ تشابك الخير والشر في نفس كل انسان يعكس ظاهرة تشابك الاختيار والاشرار في المجتمع. وذات القوانين التي تحكم طبيعة التشابك على صعيد النفس ذاتها تحكم التشابك على صعيد الجماعة.

٢- وبناءً على ذلك؛ فاننا لا نستطيع ارجاع كل الظواهر الاجتماعية الى الجانب السلبي من الانسان حتى نجد انفسنا في حلقة مفرغة لا نعرف من أين تبدأ المؤثرات، بل يجب أن نبحث عن خطي السلبية والايجابية معاً؛ فمثلاً في موضوع اساس المجتمع، لا نستطيع أن نجعله الحاجة وضرورة العيش فقط، (وهو- طبعاً- اساس تقتضيه الغريزة الانسانية) بل لابد ان ندخل في حسابنا الحب البرئ الذي يتمتع به كل فرد إزاء ولده ووالديه وأقاربه فمجتمعه.^{٣٦}

^{٣٤} سورة الحجرات: ١٣

^{٣٥} محمد عثمان نجاتي. القرآن وعلم النفس (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١) ٢٣٩.

^{٣٦} نفس المرجع ٢٤٠.

وليس من الصائب إن نجعل اكتشاف الحديد واستسلام الانسان له، سبباً لطور جديد من المجتمعات، خاضعة للزراعة والصبر والعمل، بل لابد ان نلاحظ ايضاً، حالة الصبر والعمل الذي سبق اكتشاف الحديد، وكان جانباً ايجابياً من الانسان وغير متأثر بالظروف المادية.

٣- وبالتالي في تقييم دور الفرد في تسيير المجتمع، أوتسييره بالمجتمع لابد أن نقدر ليس فقط حاجات الفرد المادية، والتي ترتبط بصورة اخرى بالمجتمع وضغوطه، بل وايضاً تطلعاته الاصلاحية المبدعة، ومدى "ارادته" في فرض هذه التطلعات على التيار الاجتماعي، وهكذا يجب رسم خط بياني كالتالي في معرفة التأثير المتقابل في المجتمع.^{٣٧}

في تأثر الفرد بالمجتمع نقول:

الفرد = نسبة ضغطه + نسبة ضعف مقاومة المجتمع له = نسبة التأثير.

وبالعكس نقول:

المجتمع = نسبة ضغطه + نسبة ضعف ارادة الفرد = نسبة التأثير.

٤- وقد يكون تيار الاجتماع خاطئاً كما قد يكون الفرد خاطئاً، ولكن لن تكون القوانين التي لابد من تسليم التيارات الاجتماعية لها، لن تكون خاطئة ابداً.

بمعنى ان أي فعل اجتماعي سليم، ينطوي على مردود سليم، وأي فعل اجتماعي خاطيء ينطوي على مردود خاطئ مثله. وافضل مثل له: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)^{٣٨}

٥- وليست النظم الصحيحة هي التي تتبع تيارات اجتماعية معينة، بل التي تتعرف على سنن الاجتماع وتحدد اهدافه، ووفق تلك السنن تخطط للاهداف "فالعارف بزمانه لا تهجم عليه النوائب". ولكن يجب على النظام الاجتماعي، لكي يكون واقعياً ان يحدّد بدقة مرحلة الاجتماع التي يريد ان يضع لها الشرائع ثم يضع تلك السنة.

^{٣٧} نفس المرجع ٢٢٥.

^{٣٨} سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦

٦- والمجتمع كيان قائم فعلاً، وتستطيع تحديد سمات أي مجتمع من ناحية القوة والضعف، والصحة والمرض، والكياسة والتبلد، والشجاعة والجبن، وسائر الصفات البشرية. ولا يعني هذا سوى ان المجتمع سيضغط على الفرد باتجاه الطابع العام، وهذا الضغط هو بدوره مجموع ضغوط الافراد الذين يشملهم اطار المجتمع. والضغط قد يرتفع إلى مستوى العقاب المادي، فيكون بمستوى الحكومة، وقد يكتفي بالعقاب الأدبي فنسميه بالقيم. إلا ان الضغط سواء كان عقاباً أو عتاباً، لا يحول الفرد إلى آلة صماء، يستجيب لنداء الجماعة، بل إنه:

أولاً: يمتص بعض ضغط الجماعة بمستوى مقاومته لهذا الضغط، فإذا كان الضغط مثلاً بدرجة يحمل كل فرد من المجتمع (وهم فرضاً مائة شخص) الى التحدث نصف ساعة حول القيمة التي يقدرها الجميع، وكانت مقاومة الفرد بقدر تحتاج الى نصف ساعة من التشجيع، كان يعني ان هذا المجتمع لا يستطيع سوى دفع مائة فرد آخر نحو تطبيق منهجه، ذلك لان كل فرد يقوم بامتصاص قدر من القوة الجماعية.

ثانياً: يستطيع بعض الصمود امام ضغط الجماعة بمستوى امتلاكه للارادة الحرة التي لا تستسلم لأي نوع من الضغط، حتى يصل الى مستوى سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى، وضحووا بكل شيء في سبيل إيمانهم، مقاومين جميع الضغوط حسبما يقص القرآن ذلك: ^{٣٩} (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلُ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجَلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جِذْوِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَعَفْوٌ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى). ^{٤٠} إن المجتمع الذي قاومه هؤلاء السحرة التائبون كان يتمتع بقوة رادعة عقابية، بيد ان المؤمنين، وهم افراد من المجتمع ذاته، كانوا يتمتعون بالعقل الذي يهديهم الى الحق، ثم بإرادة تحررهم من ضغوط المجتمع، والتي عبرت عن نفسها في اقصى العقوبات، ولكنها عجزت عن تحويل الإنسان إلى آلة لا تعقل ولا تشاء.

^{٣٩} أحمد عبد الحميد غراب. الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٠٨٥) ٩٧.

^{٤٠} سورة طه: ٧٠-٧٣.

إن هذه النقطة عظيمة، ليست لأنها تشكل فقط حجر الزاوية في بناء الإنسان الكامل، بل لأنها تعتبر عدسة ضرورية في مجهر علم الاجتماع، فحين يتجاهل الإنسان هذه الحقيقة يتخبط في تقديراته للأحداث وللأشخاص ولمسيرة الحياة.

٧- والمجتمع بثنائية الخيوط التي تحركه والتي ترتبط بنفسيات المجموعة البشرية التي يتحرك كل فرد منهم ضمن محور الايجاب والسلب، لابد وأن يتكون من خيرين وشرار، ولا بد إن تكون المقاومة باتجاه الاصلاح وابتغاء الفساد، هي التي تحدد تحركات هذا المجتمع، فأمام كل فريق ينشد الخير بفعل تفوق الجانب الايجابي في نفسه على الجانب السلبي، لابد أن يقف فريق آخر يقاوم هذا الخير، واذ لا يمكن أن يكون الخيار خالصين من كل عيب، لا يمكن كون الشرار مفلسين من كل خير أيضاً.

فإن الفريق المقاوم يجد في بعض ما في الخيار من شر، وبعض ما لديه من خير مبرراً للقضاء على الخير باسم الخير ذاته. وهذا الخير والشر موزع في البدء بين الناس توزيعاً يكاد يكون عادلاً، فكل منهم يأمر بالخير وينهى عن الشر، ولكنه يعمل بهما فعلاً، وهذه مرحلة الضلالة العامة، وفيها لانجد شراً مستطيراً كما لا نجد ايضاً خيراً خالصاً.

٨- ولا بد أن الانسان يبقى على هذه الضلالة التي هي ذاتية بالنسبة الى طبيعته حسبما عرفناها سابقاً، حتى يأتيه من الله نور وهدى مبين، فيصبح البشر فريقين؛ إذ ان فريقاً منهم يشاء بإرادته الحرة أن يهتدي ويظهر نفسه من رواسب الشر، بينما يبقى الفريق الآخر على ضلالتة، التي سرعان ما يضطر، للدفاع عنها، ان يتحول إلى شر محض!!!

كذلك قال الله سبحانه حين قص علينا قصة البشرية الاولى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)^{٤١}

فهناك ضلالة شاملة، ثم يهدي الله الناس، ثم يختلف الناس تجاه الهداية.

^{٤١} سورة البقرة: ٢١٣

الخلاصة

يرى الباحث فيما مضى على سمات الفلسفة القرآنية الواقعية، والشمولية، والعقلانية. فالفلسفة القرآنية الواقعية تؤمن بكل ما هنالك من حقائق: تؤمن بالله الحق، وتؤمن بالكائنات على أنها حقائق مشهودة.

تتسم نظرة القرآن بالشمول، فهو حين يأمر بشيء لا يفرض في تقديره لهذا الشيء أو تجاهله الأشياء الأخرى التي ينبغي أيضاً العمل بها. وفي حقل الفلسفة يهدي القرآن إلى كل الحقائق، دون أن يفرض في دور إحداها على حساب الأخرى، فالدنيا حق والآخرة حق.

فالعقلانية طابع بارز في الفلسفة القرآنية، فلا يدخل الإنسان الجوالقرآني حتى يلاحظ كل شيء منظماً وموزوناً، قد خلق ليؤدي دوراً مقصوداً. فإن هدفية الحياة تسبب الإيمان باليوم الآخر ولا يمكن الإيمان بالهدفية هذه دون عقلانية الكائنات. فالعقلانية منطلق الفكر الإسلامي في تقييم الإنسان وتنظيمه ودفعه باتجاه رسالته في الحياة.

المراجع

- دنيا، سليمان. *التفكير الفلسفي الإسلامي*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- رشد، ابن. *كتاب فصل المقال و تقرير ما بين الشريعة و الحكمة من الاتصال*. بيروت: دار المشرق، ١٩٦٨.
- ريان، محمد على. *تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام*. إسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢.
- زقزوق، محمود حمدي. *تمهيد للفلسفة*. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢.
- الشنيطى، فتحى. *تاريخ الفلسفة الغربية*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
- عبد الحميد، حسن. *مدخل إلى الفلسفة*. القاهرة: ملتزم الطبع و النشر، ١٩٨٣.
- العقاد، عباس محمود. *الإنسان في القرآن*. القاهرة: نهضة مصر.
- العقاد، عباس محمود. *الفلسفة القرآنية*. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع و النشر.

- على، حسين. ما هي الفلسفة. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٢.
- غراب، أحمد عبد الحميد. الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٠٨٥.
- الفيومي، محمد إبراهيم. أبحاث الندوة نحو الفلسفة الإسلامية. المعهد العالم للفكر الإسلامي، ١٩٨١.
- قاسم، محمود. نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- قحف، محمد محمود. مدرسة الإسكندرية الفلسفية " التاريخ الحضاري و الحوار الثقافي " بين الفلسفة و الدين. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ٢٠٠٤.
- القرضاوى، يوسف. العقل و العلم في القرآن الكريم. القاهرة: مطبعة المدنى، ١٩٩٦.
- ليبب، مصطفى. مفهوم المعجزة بين الدين و الفلسفة عند ابن رشد. القاهرة: دار الثقافة للنشر و التوزيع.
- محمود، عبد الحليم. التفكير الفلسفي في الإسلام. القاهرة: دار المعارف.
- محمود، عبد القادر. الفكر الإسلامي و الفلسفات المعارضة في القديم و الحديث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٩.
- مدكور، إبراهيم. في الفلسفة الإسلامية منهجه و تطبيقه. القاهرة: دار المعارف.
- منظور، ابن. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٩٩٠.
- نجاتي، محمد عثمان. القرآن و علم النفس. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١.
- النشار، على سامي. مناهج البحث عند مفكر الإسلام و اكتشاف المنهج في العالم الإسلامي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧.